أولا: عالم الأفكار

تمثل دراسات «رؤى للعدوان من مداخل متنوعة» فى هذا الجزء فعاليات ندوة «كيف نقرأ مشهد العدوان على غزة»، التى نظمها مركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة يوم الثانى من فبراير ٢٠٠٩ .

معركة الذاكرة الحية وصراع المعاني

د. سيف الدين عبد الفتاح

عالم المفاهيم.. كلمات كالعرض والأرض:

هذه محاولة منا للتعرف على مقام الكلمات في تشكيل العقل والوعي إن سلبًا وإن إيجابًا، دائمًا نتعامل مع عالم الكلمات مقطوعة عن أوصافها ومفصولة عن نعوتها رغم أن التراث القديم والحديث يعلمنا الكثير حول ضرورات الوصف، بل إن القرآن مصدر مرجعيتنا التأسيسية في أكثر من آية يشير إلى: الكلمة الطيبة، والكلمة الخبيثة، ويحذر من زخرف القول غرورًا.

إننا في حاجة إلى «فقه الكلمات»... يحدد المواقف ويحرر الأحكام ويقدم البدائل... فهل لنا أن نُكَوِّن معجمًا في «فقه كلمات الأمة»؟

فهذه كلمة «طيبة» في كينونتها وجوهرها، وآثارها وثمرتها، وتلك كلمة «خبيثة» في مقصودها وأغراضها، فهناك من الكلمات: الميتة، والقاتلة والمميتة، والوثن، والمخذولة.

وهذه كلمات على ما يصفها البشير الإبراهيمي «كلمات مظلومة»، «كلمات مغتصبة»، و«كلمات المستوطنات» و«كلمات عدوة»، وهذا تصنيف آخر يسوقه لنا ابن حيَّان في رسالته للعلوم «اللفظ الحر» و«اللفظ العبد»، والمعاني الحرة والمعاني العبدة.

وها هو مصطفى صادق الرافعي يكتب في «وَحْي القلم» أن الكلمات كالحياض وكالجيوش، وجب الدفاع عنها كالأرض والعِرض؛ لأنها تُنتهك في حرماتها، وتُدنس في معانيها.

نحن بحاجة إلى رفع الظلم عن الكلمات المظلومة، ورفع الستر والنقاب عن الكلمات الظالمة، التي تغسل الأمخاخ جماعيًا وتستوطن العقول فتجعلها مؤجرة أو مفروشة لحساب ثقافة غير ثقافتنا. وانتهاك حرمة معاني الكلمات لا يأتي فقط من معتدٍ من خارج يحاول أن ينحرف بالمعاني ويدلس الدلالات، فتصير الكلمات لا تدل أو ترشد، بل قد تأتي من داخل تهون فيه الكلمات وتُهان، أين نحن من كلمات الكرامة؟!–وعقلبة العزة ونفسية الأحرار، أين مقامنا من كلماتنا، ومقام كلماتنا فينا؟–– أين نحن من كلمات تبدو في ثوب الرحمة وهي تحمل كل معاني العذاب في باطنها ومكنونها، في توابعها وآثارها؟ ألا يستحق كل ذلك منا أن نستَنْفِر كل صاحب كلمة أن يكتب في زاوية «فقه الكلمات المتجدد»؟!

المفاهيم انعكاس للجوهر الحضاري

للمفاهيم دور محوري في عملية بناء الهوية، والمفاهيم انعكاس للجوهر الحضاري، وهي تتضمن عناصر مختلفة ومتنوعة لا يمكن رؤيتها إلا كعناصر مترابطة تعكس تركيب الواقع وتطوره وتطور إدراكه، وتؤثر يقينًا على البنية المعرفية وفي السياق الفكري وفى المواقف الأساسية. أهم هذه القواعد جميعًا المفاهيم عملية في صميم قضية الهوية، والمفاهيم كانعكاس للجوهر الحضاري ليست سوى منظومة فكرية يفترض فيها الانسجام. والمفاهيم كمنظومة تتضمن عناصر مختلفة ووحدات مفاهيمية متعددة ومتنوعة لا يمكن رؤيتها إلا كعناصر متراتبة متراكمة تؤثر يقينًا على موقعها في البنية المعرفية وقيمتها في السياق الفكري وحجيتها في العملية

الحضارية الممتدة. وسواء تراتبت المنظومة المفاهيمية كدرجات سلمية أو كحلقات دائرية متداخلة، فإنها بحكم القاعدة التي تحكم النظام والمنظومة هي متفاعلة، وربما تكون متكاملة متساندة.

أول ما تصاب به الأمم في أطوار تراجعها الفكري والمعرفي والثقافي مفاهيمها، وأول ما يتأثر بعمليات الصراع الفكري والثقافي مفاهيمها كذلك، وأهم الأمراض التي تعتري المفاهيم الميوعة ثم الغموض.

بدأت المفاهيم السائدة تتحول إلى أداة للتضليل والتشتت والتشرذم، بدلا من أن تكون أداة معرفية وبيانًا وإيضاحًا وجلاء للغموض.

كما تحولت المفاهيم السائدة في ظل ذلك التداخل والتشابك العجيب الذي حدث في الساحة المعرفية العربية -بالذات بين الوافد الدخيل والموروث المترسب- من وسيلة تعبير عن الذات والهوية إلى وسيلة للانفكاك عن الهوية دون حصول على بديل لها، وتذبذب في الانتماء واختلاط في الانتساب.

وحين تكرست الاختلافات في داخل الأمة وتحول الناس إلى معسكرات متحاربة صارت المفاهيم الوافدة -بحد ذاتها- هدفًا ومقصدًا لبعض الفصائل يستحق أن يُفرض على الفصائل الأخرى، ولو بالقوة. ومع أنه كان هناك وعي لا بأس به بأن هذه المفاهيم تستبطن في ثناياها أهداف ومقاصد الثقافات المجلوبة وتستتبعها، إلا أنه كان هناك إصرار بالقدر نفسه على فرضها على الساحة الفكرية العربية حتى لو أدت إلى مسخ وتشويه أهداف ومقاصد هذه الأمة.

وإذا كان معنى الكلمة أو العبارة هو «استعمالها» في اللغة فيجب أن يكون هذا الاستعمال محكومًا بقواعد؛ بحيث يجعل الكلمة أو العبارة ذات مغزى، ومن ثم تأتي ضرورة التفرقة بين الاستعمال الصحيح والاستعمال غير الصحيح، فالاستعمال الصحيح هو الذي يجيء منسجمًا مع القواعد التي تضبطه، أما الاستعمال غير الصحيح فهو الذي لا يخضع لتلك القواعد، ومن هنا راح أصحاب نظرية الاستعمال يبحثون عن قواعد استعمال الكلمات والعبارات.

ولقد فطن البلاغيون المسلمون -بالإضافة إلى الأصوليين- إلى نظرية الاستعمال أو السياق وبخاصة سياق الموقف عندما قالوا «لكل مقام مقال». والحق أن توضيح المعنى على المستوى الوظيفي (الصوتي والصرفي والنحوي) وعلى المستوى المعجمي (العلاقة المعرفية بين المفردات ومعانيها) لا يقدم لنا إلا «معنى المقال» أو «المعنى الحرفي» كما يسميه النقاد أو «معنى ظاهر النص» كما يسميه الأصوليون. وإذا شئنا أن نقدم المعنى الدلالي في صورته الكاملة فلا بد أن نضيف إلى «المعنى

إننا فى حاجة إلى «فقه الكلمات» .. يحدد المواقف ويحرر الأحكام ويقدم البدائل .. فهل لنا أن نكوّن معجمًا فى «فقه الكلمات»؟

المقالي» جانبًا آخر هو «المعنى المقامي» وهو ظروف أداء المقال ويسمى بالمقام، أو سياق النص والبيئة المحيطة به.

المفاهيم وتحريف المعنى

يجب عند محاولة فهم أسباب تطور المفاهيم وتغيرها عبر التاريخ التمييز بين ظاهرتين مختلفتين هما: «تغيير المعنى» و«تحريف المعنى». وتغيير المعنى يكون لأسباب ظهور الحاجات الجديدة، كالاكتشافات العلمية مثلا. أما تحريف المعنى فيترتب عليه تغيير المفاهيم؛ نظرًا لأن المفاهيم التي نعبر عنها بألفاظ أو مصطلحات هي في جوهرها معانٍ مجردة. ولكن عملية تغيير المعنى على هذا النحو تُعد عملية طبيعية ولا غبار عليها، وإنما الشيء الذي يتعين علينا الانتباه إليه هو «تحريف المعنى»، وهو أمر مغاير لتغيير المعنى؛ على أساس أن تغيير المعنى يتم بصورة طبيعية إلى حد كبير ويحظى بقبول عند الجماعات اللغوية ولدى المجامع اللغوية والهيئات العلمية، أما تحريف المعنى فيحدث تحقيقًا لمقاصد معينة ولأغراض فكرية ومعرفية وسياسية ومصلحية عند من يمارسه.

التاريخ والنماذج التاريخية معمل تجارب: الذاكرة الحضارية الحية: المشاريع الحضارية المتدافعة

هذا العنوان عن فكرة كان يرددها أستاذنا الدكتور المرحوم حامد عبد الله ربيع؛ فكرة ورؤية للتاريخ كمختبر للأفكار والنظريات، وكأرضية صالحة لابتناء «نماذج» تعمل عمل النظريات في إحسان الوصف والتفسير والتأويل والتصديق والاستشراف: مقارنة ومقاربة وتسديدًا. وضمن هذه الرؤية الواجب تفعيلها يمكن قراءة المشروع الأكبر الراهن: «الشرق الأوسط الكبير» وما يرتبط به من مفاهيم متصادمة أو ما يمكن العنونة له بـ«صدام المفاهيم»، وذلك على النحو الذي قدّم مثله الرافعي في المفاهيم العدوة، والكلمات المقاوِمة... ولغة التاريخ الحاملة لكل معاني الذاكرة الحضارية.

إن الفكرة الرئيسة التي يمكن أن نستلهمها من عبرة التاريخ ونماذجه الواضحة وضوح الشمس في ضحاها تتمثل في أن الاحتكاك الإسلامي مع الغرب كانت له سمات ودلالات مهمة أنموذجية تنبع من الطابع اللازم والملازم لأصول هذين الطرفين الحضاريين؛ تنبع من المركَّب الأصيل المحفّز لبناء كل منهما ابتداءً، والموجِّه لتطور كل منهما ولمساره انتهاءً، والمؤثر

في تفاعلات هذين الكيانين عبر تاريخ العلاقة بينهما وعلى امتداده زمانًا ومكانًا. هذه السمات والدلالات يمكن استخلاصها من المرور على مراحل أو حالات ثلاث سابقة، مثلت لحظات فارقة معبّرة، بالإضافة إلى المرحلة الراهنة الرابعة:

الحالة الأولى: ويمكن تسميتها «الحالة الأندلسية»، وهي حالة عجيبة؛ إذ برزت فيها إرهاصات ظهور «الدولة-القومية» في عالم المسلمين، وإن كان باسمٍ مختلف هو «ملوك الطوائف» أو «طوائف الملوك».. تلك الدويلات التي كرست حالة التشرذم، كاشفةً عن القابلية الأساسية لتحقق الاستئصال الذي تم بعد ذلك للوجود الإسلامي في الأندلس وما تبعه من وحشيات تنصير إجباري ومحاكم تفتيش. لقد قَدِم المسلمون إلى هذه البقاع ومعهم مشروع فكري (فكرة) فاستطال وجودهم، إلى أن ذبلت الفكرة وانقشع شذاها، ثم جاءهم الغرب بفكرته «قوية» وإن لم تكن ذات قيمة، فكان لابد أن يَستأصل الشأفة؛ هكذا كان دخول المسلمين لشبه جزيرة أيبيريا وهكذا كان دخول الغرب بعدهم أو حلوله، كلٌ كان يصدر أمامه مشروعًا حضاريًا حملته «الفكرة» أكثر مما حملته القوة العسكرية

الحالة الثانية: ويمكن تسميتها «الحالة الصليبية»؛ وهي اللحظة الثانية الكبرى للاحتكاك مع الغرب، كان التنازع فيها في جوهره -على خلاف ظاهره- فكريًا رمزيًا؛ تنازعًا على رمز: «بيت المقدس». في هذه الحالة أيضًا كانت دويلات «شرقنا» الإسلامي تمثل تكرارًا لنموذج طوائف «غربنا» الأندلسي، وكانت طبائع هذه «الدول-القومية» تفرز ميولها وقابلياتها للتشرذم والانفصال ذاتها.. لكن مع تميز قد يبدو ضئيل القيمة؛ هو الاعتراف الاسمي والرمزي بمظلة الأمة والخلافة. لكن يلاحظ أن هذا الاعتراف وهذا الاستظلال -رغم رمزيته وشكليته- فربما هو الذي ولّد -سراعًا- خمائر مقاومة وتجميع؛ فكان أن انبلج النورويون وصلاح الدين والأيوبيون؛ مما أحدث حالة من المد والجزر لم تزل تتدافع فيها قابليات الوهن المفرّقة مع خمائر عزة مجمِّعة، فيسترد المسلمون بيت المقدس (صلاح الدين وأخوه العادل)، ثم تؤخذ منهم بصورة عجيبة زمن الكامل أبي بكر ابن العادل.. إلى أن يجتمع العدوّان: من الشرق (المغول) ومن الغرب (الصليبيون).. وتستمر القابليات تعالجهما وتدافعهما. هذه التجربة والتي قبلها أفرزتا مقولات مهمة منها:

- أن الغزو حين يكون عسكريًا بحتًا يسهل التغلب عليه، وحين يصحبه فكر ومشروع فكري -ولو كان رمزيًا- فإنه يعمّر زمنًا ويستطيل (حتى يصل إلى قرنين في الحالة الصليبية، بينما كان ما بين سقوط بغداد باجتياح مغولي عسكري بجحافل مادية وبين المواجهة المنتصرة في عين جالوت عامان فقط أو يكاد: ١٢٥٨م/ ٦٥٦هـ - ١٢٦٠م/ ٦٥٨هـ). إن المشروع الفكري يطيل أَمَدَ الفعل الاستعماري وإن كان باطلا.
- أن أمراء التغلب (ساعتها) الذين تغلبوا بقوتهم على بعض مكامن السلطة، رغم أنه بتغلبهم واستيلائهم برزت الدويلات والإمارات الممزقة؛ إلا أنهم أيضًا استطاعوا أن يؤسِّسوا معادلات صعودهم واستيلائهم على السلطة (بشكل غير شرعي طبعًا على حساب المركز: الخلافة) في توازن مع استخدام تلك القوة -من جانب آخر- للقيام بوظيفة «حماية الأمة». لقد كانت قوتهم هذه نفسها سلاحًا ذا حدّين؛ فهي التي مكنتهم -من ناحيةٍ- من حماية الثغور وحراسة حدود الأمة، وخاضوا بها الحروب ضد أعداء الأمة وخصومها. لكن -من ناحية أخرى- فإن تشرذم هذه القوة وتسرب عناصر الضعف لها تباعًا كان يصبُّ في ضعف الكيان العام؛ الأمر الذي استثمره العدوان الصليبي.

وهذا الأمر -للأسف- لا تقوم به اليوم دول-قومية صناعتها التجزئة واحتراف التبعية؛ تَصْدَع بالسيادة حيث يجب ألا تصدع بها، وتتخلى عنها حيث تجب تقويتها والاحتماء بها قولا وفعلا. إن «السيادة» في معادلاتها الواجبة ليست إلا «الإرادة» و«العُدّة» في واصلةٍ بينهما هي «الإدارة»: إدارة الكيان، وإدارة العلاقات، وإدارة التماسك، وإدارة الاستراتيجيات والسياسات، وإدارة المواجهة للتحديات والممانعة على الخضوع والاستسلام والمقاومة للخصوم والأعداء. ليس هذا إلا صياغة لمفهوم «السيادة» ضمن معادلة الإرادة والمكانة والتمكين، وهذه ليست صياغات بلاغية لفظية؛ بل هي عمل تأسيسي وتراكمي مستمر يشكل البُنية التحتية والقومية معًا لمضمون «السيادة».

إن عالَم اليوم في «أمتي» لم يعتبر درس التاريخ؛ فظل هؤلاء المتغلِّبون يمثلون نموذج «ملوك وحكام الطوائف»، ويحملون كل سيئات النموذج، ولم يقدموا حتى ما قدمه أمراء التغلب في تاريخنا حينما اضطلعوا ونهضوا بحماية الأمة أربطةً وثغورًا.

الحالة الثالثة: «الحالة العثمانية»، التي شهدت مع إرهاصات ضعفها بروز دولتنا-القومية الحديثة، وذلك أثناء الحرب العالمية الأولى، والتي انتهت بأقصى ما كان يمكن أن يصل إليه الاحتكاك بالغرب، في صورة «الاستعمار» والاحتلال والحلول بعقر دار الإسلام، وتنفيذ المشروع الاستلابي بين يدي الآخر وعلى عينه.

لقد طرح الغرب مشروعه واضحًا إبان هذه المرحلة متمثلا في «المسألة الشرقية» و«عبء الرجل الأبيض»، و«مسألة الرجل المريض»، فكيف واجهنا هذا المشروع؟ إنها المواجهة المرتدة على أعقابها، المسترشدة من التاريخ فقط بعروبة الجاهلية أو المكتفية منه فقط بجاهلية العرب.

الحالة الرابعة وهي الراهنة: «الشرق الأوسط: من رحلة المسألة الشرقية إلى الشرق الأوسط الكبير»: وهذه المرحلة هي خلاصة ما سبقها. إن كل الحالات السابقة إنما قامت على مشروع «فكّ وإعادة تركيب» للمنظومة، ومن ثم لم تكن لتمضي قُدمًا دون قابليات لهذا الفك ولإعادة التركيب، فكان لابد أن تستقبلها قابليات الدولة–القومية، أيًّا كانت صورتها: ملوك طوائف (طوائفية)، دويلات مستقلة (شعوبية)، ولايات مستقلة (دولة محمد علي وخلفائه، الباشوات، البايات، الدايات وانفراط أوصال حياة الرجل المريض...).. أو دول تدعى مستقلة حاليًا (قطرية).

حتى كان المشروع الراهن الذي أتى على حالٍ أخذت الأمة فيه من ماضيها كل ما كان سيئًا: فملوك الطوائف متترسون – إزاء بعضهم البعض– داخل قومياتهم وقطرياتهم وحدودهم التي رسمها لهم «الغرب»: صاحب مشروع الغزو والهدم والغصب...، وأمراء التغلب كرَّسوا تغلُّبهم في العلاقة مع شعوبهم فيما لا حراسة لثغر، ولا حماية لسور، ولا رعاية لبوابة من بواباتنا المفتوحة على مصاريعها.

إن «يوم الأحزاب» عاد أدراجَه، ولكنه عود غير أحمد؛ فالخندق الحائل الحامي قد ردمته «العولمة»، والاختراق صار – في ظل قابلياته– خرقًا وانخراقًا، والأحزاب صار فيهم مَن هم «من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا»... وبرزت الأمة/ القصعة «تتداعى» عليها الأمم من فوقها ومن أسفل منها، لا من قلة، ولا من إقلال، بل من وهنٍ وقابليات استخفاف.

فأين سفينة أمتي من هذا الخضم؟ هل يعي هؤلاء ممن خرقوا «سفينة الأمة» ولسان حالهم يقول: «نخرق خرقًا في موضعنا هذا،.. ولم نؤذِ من فوقنا،.. نحصّل منه ماءنا... هذا موضعنا نفعل فيه ما نشاء»؟!! ما بال هؤلاء لا يفكرون إلا تفكيرًا «أخرق» يخرق السفينة حتى تشرف على الغرق والهلاك؟!.. إن بعضًا من «أمتي» لا يَعُون الدرس، ولا يتخذون العبرة من الخبرة والفكرة، ما بالهم لم يتعرفوا على درس مصطفى صادق الرافعي حينما بحث في متتابعات منظومة السُّنن فوجد أن «أصغر خَرْق يَعنِي أوسعَ قَبْر»؟

إن المشروعات التي تحمل شعار «الشرق الأوسط» برزت تاريخيًا لتعبر عن هدف السيطرة على المنطقة بأشكال وأساليب تختلف حسب الزمان والمقام، وهي وسيلة تشكّل حلقة متصلة – سواءً أكان هذا «الشرق الأوسط» «جديدًا» أم «كبيرًا»– لتحويل أنظار الشعوب (إسلامية أو عربية) عن هدفها الاستراتيجي الذي أجمعت عليه «الأمة» منذ سقوط الخلافة العثمانية؛ والذي يهدف إلى إعادة بناء المنطقة العربية والإسلامية وإعادة توحيدها في صورة عصرية من خلال بناء تكتل إقليمي يضم دول العالم الإسلامي العربية وغير العربية، وهو أمر يحيلنا إلى قواعد النظر السليم لمشروعات الشرق الأوسط؛ هذا النظر الذي لا يكفي فيه مجرد رفض تلك المشروعات التي تحمل شعار الشرق الأوسط، بل لابد من أن تضع القوى الفاعلة سياقات عملية لبناء تكتل عربي إسلامي إقليمي عصري مستقل عن نفوذ الإمبراطوريات الأجنبية التي تريد استغلالها والسيطرة عليها.

ومشروعات شعار الشرق الأوسط ليست إلا تحايلا أجنبيًا يراد به تجاهل وحدة الأمة العربية الإسلامية صاحبة هذا الإقليم، بل وتجاهل وجودها وحقوقها، وإعطاء منطقتنا اسمًا جديدًا يفتح الباب لسيطرة قوى أجنبية، تهدف من وراء مشروعاتها ومبادراتها إلى تحقيق مصالحها التي ترى في الهيمنة والسيطرة عليها الطريق المؤكَّد لتحقيق ذلك في النظر إلى هذه المنطقة كعُقدة إستراتيجية، فهل يمكننا أن نتدبر تلك المعاني حينما يرِد علينا شعار تارة يوصف بشرق أوسط جديد، وتارة بالكبير؟

فدعوة «الشرق الأوسط الكبير» تعني من بين ما تعنيه، وضع العرب –أنظمة وقوًى شعبية وشخصياتٍ فكرية– أمام تحدٍّ ذي بعدين متضادين: الطروحات التي تستهدف خلخلة الأنسجة الاجتماعية العربية والإسلامية، وإدماجها على شكل كنتونات عِرقية وطائفية في نظام إقليمي، يدور بقيادة صهيونية في الفلك الأمريكي، مقابل الطموحات التي غايتها تعظيم قدرات وتعزيز منعة العالم العربي، وتنمية التفاعلات الإيجابية قطريًا وقوميًا، والاستفادة بقدر المستطاع من تجربة الاتحاد الأوروبي.

إنها حالة من تكريس «الوهن» في الكيان والتفكير والتدبير والتغيير، وفي المقابل حالة من تأكيد «العزة» في خمائرها في تماسك النسيج للكيان الاجتماعي الحضاري العربي وأصول التفكير الناهض والتدبير الرافع لمكانة الأمة، والتغيير الدافع لإمكاناتها وفاعليتها.

غزة العزة: وعي بحضارية الصراع ومصيريته (الرؤية الحضارية للصراع العربي الإسرائيلي) الرؤية الحضارية ليست شعارًا يُطلق أو موقفًا عنتريًا يُضرب، أو حركة حماسية أو انفعالية تُشرع، أو قائمة كلامٍ يُلقى، أو بلاغة وفصاحة تُلفظ، أو تعبئة الصراع برؤية دينية، بل هي رؤية إستراتيجية حضارية تعبر عن وعي المكان وعبرة الزمان وسعي التدبير وأصالة الالتزام.

حضارية الصراع وعي وسعي، وعي بالخصم والعدو والتعرف عليه بدقة؛ لأن ذلك من ضرورات تعيين المواجهة والتحسب للمقاومة والاستجابة للتحدي. تحديات هذه الأمة – مهما كانت جزئية أو متعينة، ممتدة أو متجذرة– هي في مكنونها حضارية الطابع، وحضارية الطابع والتكوين تفرق، حضارية النظرة والمنظور، وحضارية الاستجابة والتحدي، وحضارية المواجهة شمولا وتكتيلا وتعبئة وتفعيلا. الوعي

الحضاري في مكوناته لا يكون إلا بمعرفة الخصوم، ومن الوعي أن تنزل كل خصم منزلته، وأن تعرف أصول منازلته، معرفة المنزلة أول خطوة في أصول المنازلة، وأول درجات الوعي والسعي في مواجهة النوازل التي تخص الصراع العربي الإسرائيلي.

هكذا وجب علينا أن ننظر في مكنون هذه الرؤى فتكون المعادلة ذات أبعاد حضارية متنوعة متكافلة مؤتلفة:

المكان × الزمان × التدبير × الالتزام= رؤية حضارية إستراتيجية عميقة شاملة ممتدة:

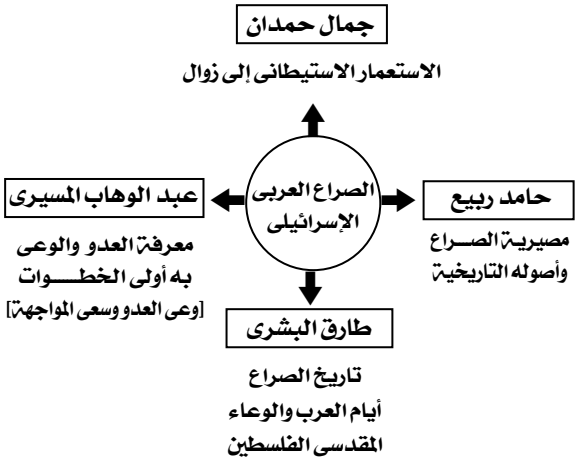

- منزل الصراع ـ مكان ـ جمال حمدان
- نوازل الصراع ـ زمان ـ طارق البشري
- منازلة الصراع ـ تدبير ـ حامد ربيع
- منزلة الصراع ـ التزام ـ عبد الوهاب المسيري

هذه النماذج الفكرية التي تخيرناها تشكل البوتقة التي انصهرت فيها الرؤى لتؤسس عناصر رؤية حضارية كاملة ومتكاملة، متنوعة ومتكافلة، كلية حضارية شاملة.

من أي نقطة بدأت: من حمدان أو البشري أو ربيع أو المسيري، ومن أي مسار شرعت: من المكان أو الزمان أو التدبير أو الالتزام فأنت تسير إلى تلك الرؤية الحضارية لصراع ممتد يستدعي كل هذه العناصر في بوتقة حضارية تؤسس الرؤى وتحقق وعي السعي من خلالها وسعي الوعي بالتعامل معها.

إن المكان لا يُعد إلا في زمانه الممتد الذي تشكل ذاكرته وامتداده مكانته وقيمته. التاريخ ينادي الجغرافيا، والزمان يدعو المكان، والمكان يفرض على أهله التزامًا بمقتضياته ومعطياته ويفرض قدرة ومكنة على التدبير، فيما كل ما يتعلق به من حفظ الكيان وحفظ المكان وحماية الإمكانيات والمكنة والمكانة وتأسيس التمكين والتأثير والفاعلية في المكان والزمان والإنسان.

والزمان ليس فراغًا من الوقت، بل هو قيمة في ذاته وفيما يمتلئ به من فعل حضاري حاضر وفعال، وهو يدعو المكان بما يشكله من ساحة حضارية للفعل الإنساني تدبيرًا والتزامًا.

ومعطيات الزمان وتدبير الالتزام والتزام التدبير حركة فاعلة نحو قضايا الأمة تدبيرًا وإلزامًا، ها هو التدبير: تدبير المكان وتدبير الزمان وتدبير الالتزام في جامع حضاري يعي للأمة همومها وقضاياها الناشئة عن حاجاتها واحتياجاتها، عن تحدياتها وابتلاءاتها الحضارية، عن خياراتها واستجاباتها الحضارية. التدبير حركة ماضٍ «لو استقبلت من أمري ما استدبرت» وحركة حاضرة «حضورٍ في الزمان والمكان وشهود يحمل الرسالة في المكان والزمان» وحركة استقبال تعني الاعتبار الماضي بالحضور الفعال بالمستقبل المنشود «ولتنظر نفس ما قدمت لغد». تدبير يتحرك صوب كل ما يحفز الكيان وينفعه.

أما إذا شرعنا في مسار الالتزام فهو التزام جامع بما يلزمه المكان وبما يلزمه الزمان حفاظًا على الكيان وبما يعنيه التدبير بالنسبة للمكان والزمان التزامًا بأصول التسيير وقواعد التدبير ومكان التأثير (التزام بقضايا الأمة وهو ما في امتداد المكان وطول الزمان وتدبير أهلهما والمسئولين عنهما في كل حركة تسيير وكل خطوة تدبير).

مسارات المعادلات تؤدي إلى بعضها البعض. وإن الخلل في واحدة منها يؤدي إلى اختلال الرؤية، بل هذا الاختلال يستطرق في كل العناصر الأخرى، المعادلة تتحرك صوب فعلين مهمين: الإدارة والإرادة.

غزة العزة بين قاموسين ومشروعين: قاموس المقاومة والمنعة وقاموس التخذيل والإرجاف في زمن الرويبضة

تعيش الأمة ضمن عالم أحداثها لحظات كاشفة، إلا أن هذه اللحظات الكاشفة لا يمكن أن تؤتي أُكُلَهَا في التأثير في الأمة إلا أن تتحول كاشفيتها (أين المحنة التي تواجه الأمة؟) إلى لحظات فارقة تفرق بين مرحلة مضت وأخرى آتية، نريد للأخيرة -ضمن «فارقة»- أن تتبين وهنَ أمرها ووهنَ تفكيرها وتدبيرها وعناصر تغييرها، وتفرق وتفرز بين إمكانات الأمة في المواجهة والممانعة والمقاومة وبين عناصر وآليات تخذيل الأمة ونشر اليأس في أرجائها والترويج للقبول الخانع والاستسلام الفاقع والفاجع. هذه اللحظة الفارقة لابد أن تتحول -وفق وعيٍ سُنني بحركة التاريخ- لتبحث في الشروط التي تقوّم عناصر وهن الأمة. إنها لحظة التقاط العبرة في الخبرة والفكرة، تتحول فيها هذه اللحظة الفارقة إلى لحظة مقوِّمة، تُقوّم ما نحن فيه وزنًا وتأثيرًا، وتقوّم ما مرَّ بنا من أنماط واهنة وفاسدة في التفكير والتدبير؛ بحيث تشرع في عمليات «إصلاح» ومنظومة متكاملة واعية للتمكين لشروطه وتفعيل مقوماته.

إن التساؤل الذي يستحق إجابة منا يدور حول «أين الطريق للخروج من المحنة؟». إنها «المحنة» حينما نقتنص فيها -بوعي وسعي- مقام «المنحة» منها و«العبرة» فيها. في قلب كل محنة تكمن «المنحة» التي تمكّن «للقدرة والإرادة» بالخروج منها ومن عناصر استحكامها، وربما من استمرارها وتحكّمها.

هذا الخروج من حال «المحنة» و«الأزمة» لا يمكن أن يحدث إلا بسُنّته الشرطية القابلة للفعل والتفعيل والفاعلية.

هذا الخروج لابد أن يمتلك الشرط التأسيسي بامتلاك الإرادة، وأن يستند إلى عناصر تأسيسية وبُنية أساسية من «العُدّة» والاستعداد والإعداد، تؤكد واصلة الإدارة بين الإرادة والعدة.

إن هذه العملية بكل تكويناتها هي ما نطلق عليه «الإصلاح» أو «النهوض»، إلا أنه مِنْ غَرَضِ هؤلاء الذين لا يريدون لنا «إصلاحًا» أن يموّهوا عليه وأن يتدخلوا فيه وعلى خطّه، حتى نكرهَ «الإصلاح» نفسه أو حتى كلمته؛ لمجرد أنه يرد على ألسنة مَنْ لا يريدون بنا خيرًا، أو يروجون لإصلاح زائف، ضالٍّ ومضلٍّ، لا يريدون منه إصلاحًا حقيقيًا أو مكينًا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، ويطلقون وربما الأدق يغتصبون مفاهيم مثل الإصلاح والاعتدال، يطلقون هذا وذاك على عكس المقصود فإصلاحهم ليس إلا عين الإفساد والتمزيق والتفتيت، والاعتدال ليس إلا الاستسلام والخنوع والتبرير للقعود والوهن في انتظار السلام الموهوم، السلام كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء. إنها حيلة العاجز «السلام خيار استراتيجي» حتى لو كان العدو لا يعرف إلا لغة القتل مدعيًا حماية أمنه فمنذ متى أمن اللص؟!.. إنه التلبيس الحادث حينما تكون الكلمة كلمة «حق» يراد بها «باطل»، حق في محتواها، باطل في مقصودها. إنها المفارقات التي تتطلب تلك العقلية الفارقة التي أشرنا إليها، والتي تتولد من العقلية الكاشفة في حال المحنة والأزمة. لا نريد -ونحن على طريق الإصلاح- أن نضلَّل في بدايته أو يُموَّه علينا في مقصوده، أو نتلهَّى عن جوهر الإصلاح بشكل أجوف أقرب إلى الزُّخرف منه إلى الإصلاح الحقيقي: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وغاية الأمر في هذا المقام أن نتلمس معنى «المنحة في المحنة»، ونتلمس طريق الخروج من المحنة-الأزمة، ونشرع في صراط الإصلاح الحقيقي المستقيم؛ لا سبله المتفرقة الضالة والزائفة.

وغاية الأمر كذلك ألا نقف عند حدود آفاق الانحطاط الراهن مهما كان تراكمه ووهنه، فلا تتحكم هذه الحدود بنا تفكيرًا وتدبيرًا وتغييرًا وتأثيرًا.

حضارية الصراع وعى وسعى.. وعى بالخصم والعدو والتعرف عليه بدقة لأن ذلك من ضرورات تعيين المواجهة والتحسب للمقاومة والاستجابة للتحدى

الشرق الأوسط الجديد لم يكن إلا عنوانًا لأحد كتب «شيمون بيريز» اقتطفته «كونداليزا رايس» وزيرة خارجية الولايات المتحدة لتصف هذه الحرب بأنها «مخاض ولادة شرق أوسط جديد»، وتندر البعض أن هذا ليس إلا «شرخً أوسط جديدًا»-أو «شرقً أوسخ جديدًا» يحقق عناصر كسر الإرادة والقضاء المبرم على الممانعة والمواجهة والمقاومة.. الشرق الأوسط في عرفهم -تاريخًا وجغرافيًا- عقدة إستراتيجية ولكنه في الوقت ذاته قوس للأزمات.

بدا ما أُسمي بعملية السلام يأخذ مداه في عملية التفافية كبرى تقوم على قاعدة تحاول إخراج كل ما تستطيع من دول من حال التورط في الصراع العربي الإسرائيلي ومجاله الحيوي الإسلامي.

شكلت إسرائيل العصا الأمريكية في المنطقة ترفعها وقت تشاء وأنى ترغب، وأذعنت الأنظمة لتدخل بيت الطاعة الأمريكي فرادى وجماعات». كانت عمليات فك الارتباط للأنظمة بقضيتها الأم التي كانت من أهم أسباب حركات الاستقلال والتحرر من الاستعمار والثورات «القضية الفلسطينية»، التي تحولت إلى ما صار يسمى إعلاميًا «النزاع الفلسطيني الإسرائيلي». واكتفت الأنظمة بحديث الضرورات وانكفأت تمارس لغة شديدة الوهن والهوان تحت كلمات من زخرف القول «السلام خيار استراتيجي»، وحولت السلام من حالة وعملية إلى خيار بل وقرار مفروض وعدت فيه الأنظمة الشعوب برخاء موهوم وإنجازات عريضة، وأخذ خيار المقاومة يتوارى والممانعة تنزوي والمواجهة تغيب، ودلفنا إلى سكة أوسلو ومدريد وشروط الرباعية الحامية للاحتلال المسوغة لكل اغتصاب الحافظة لآخر الكيانات الاستيطانية وأمنه المزعوم في مطالبة من الطبيب المنتحل الدجال أن يتعايش الكيان مع سرطان خبيث يرعى فيه وينتشر، بل بدا للبعض وفى الكيان بعض من أجهزته المناعية والممانعة مما تفرضه سنن الكيان في مقاومة المرض فأرادت أن تغير من السنن الكونية والنواميس المرعية، بالاعتراف بالغصب والغاصب وحقه في أن يقتل ويدمر فتبدى الرباعية تفهمًا، وتشكل له غطاء وسترًا بدعوى حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها، فالغاصب في عرفهم يملك كل الحقوق، وغاية أمرهم

بعد إمعان إسرائيلي في القتل والتدمير في نقض علامة كل عمران من بشر وشجر وحجر، أن تحث إسرائيل على أن تتجنب الاستخدام المفرط في العنف. وحديث الرباعية حديث نفاق وخداع يتبنى لغة العدو وتتبناه بعض القيادات العربية باسم الواقعية، فحينما تروج لمفاوضات عبثية فإنها تناشد إسرائيل تقديم تنازلات مؤلمة واتخاذ قرارات صعبة، تنازلات في أرض مغتصبة، والطغيان المدلس على الحقوق، وهذا عن أراضٍ احتلتها إسرائيل في العام ١٩٦٧، أما عن فلسطين في العام ١٩٤٨ فأمر يتعلق بمحو واستئصال الذاكرة، فعرب فلسطين أو حتى عرب ١٩٤٨ صاروا عرب إسرائيل؛ وقرارات الشرعية الدولية التي كانت مجالا للفيتو الأمريكي الفاجر وتجاهل إسرائيل لها بل وانتهاك كل مستنداتها، تقفز فقط لضمان أمن إسرائيل والاعتراف بها.

توج ذلك اليوم الأمريكي في الحادي عشر من سبتمبر/أيلول الذي مثّل على حد تعبير البعض فرصة يجب أن تُستغل في فرض موازين جديدة على عالم العرب والمسلمين، وبدا هؤلاء يخوضون حربًا حضارية شاملة شكلت ترجمة حقيقية لمقولة «صمويل هنتنجتون» حول «صدام الحضارات» تحاول أن تخفي هذا التبني من خلال كلمات الزينة، ومن خلال فرض ما هو مطلوب لولادة شرق أوسط «أوسخ» جديد أو كبير أو موسع.

وبرزت الولايات المتحدة بتفردها كقطب أوحد في المنظومة الدولية تمارس سياسة كونية، وبصعود اليمين الدينى الأمريكي المحافظ، الذي خاض سلسلة من المعارك في أفغانستان والعراق وفلسطين التي تمثل معمل التجارب الدائم في إطار «اصطناع دولة إسرائيل» التي شكلت العصا القريبة في المنطقة ترفع وقت تشاء وأنى ترغب، وأذعنت الأنظمة لتدخل بيت الطاعة الأمريكي فرادى وجماعات وتمتثل لرؤية هنا أو هناك حول الشرق الأوسط الجديد.

إلا أن هذا لم يمنع من أن تكون للشعوب خياراتها التي تختلف عن ادعاءات ضرورات الأنظمة إذ تأسست في مواجهة عمليات «عدوانية»، «احتلالية» وكأن الزمن قد دار دورته وصرنا نعيش حلقة جديدة من الاستعمار الأمريكي تلعب فيه إسرائيل دورًا «أوسخ» كجماعة وظيفية تقوم بأقذر العمليات للسمسرة في مثل هذه الحروب الأمريكية.

هذه هي المقاومة في أفغانستان، والعراق، والانتفاضتان الأولى والثانية في فلسطين، والمقاومة في لبنان، وأخيرًا صمود وثبات غزة العزة.

صفحات من المقاومة تؤكد ومن كل طريق أن «خمائر العزة» متأصلة في كيان هذه الأمة، فتحدث حركة ممانعة وفعل مقاومة وفعالية استجابة لتحديات هذه الأمة.. الشرق الأوسط يستعصي على التهذيب ودخول جميع قواه الشعبية والسياسية «بيت الطاعة الأمريكي» ليس أمرًا ميسورًا..

ومن هنا شرع هؤلاء يقلبون موازين اللغة والكلمات فيسمون كل مقاومة إرهابًا، وكل ممانعة عنفًا وكراهيةً، وكل مواجهة حالة من عدم الواقعية، وبدت الأنظمة تنتقل من حال الامتثال إلى حال التبني لهذه الرؤية الأمريكية بل وضلوع بعضها بشكل مباشر وغير مباشر بأدوار «قذرة» ضمن سيناريو «الشرخ الأوسخ الجديد»، وبدأ هؤلاء المرجفون يتحدثون عن المقاومين بأنهم مغامرون ومقامرون يجرّون المنطقة إلى الحروب ويورطون «النوام» والزعماء المزعومين، ويقلقون عناصر خنوعهم واستسلامهم، بدعوى أن القيام بأي فعل للمقاومة إنما يهدد الإنجازات التي أُنجزت.. الإنجازات في ميادين الاستبداد والفساد وفي مجالات الاستسلام والقعود. تراكمت رؤية الناس والشعوب لمشاريع «الشرق الأوسط» بين «مساومات» الأنظمة، ومقاولات بعض الاتجاهات الفكرية، وفي هذا السياق كان الخيار بين المقاومة من جانب والمساومة والمقاولة من جانب آخر.

وبدت الأمة من قلب محنتها تتساءل حول الكيفية التي تخرج بها من المحنة، والأسلوب الذي تحول من خلالها «المحنة إلى منحة»، ولسان حالها يقول: هذه مشروعات تستهدفنا فأين مشروعات هذه الأمة ونهوضها؟

هل كُتب على هذه الأمة أن تظل موضوعًا أو مفعولا به لمشروعات من هنا أو هناك، وتحت أسماء ما أنزل الله بها من سلطان؟! أين هذه الأمة من فاعليتها وخياراتها؟! إن مشروعات هذه الأمة يجب أن تنهض بها وتؤكد عزتها وكرامتها وشرفها.

«المقاومة» تصدع كل يوم أن «المقاومة خيار بل وقرار استراتيجي» فكتبت هذه المقاومة صفحات، الصفحة تلو الصفحة في سياق يؤشر على «بلاغة هذه المقاومة وبيانها» على الأرض تقدم فاعليتها في مواجهة العدوان والاحتلال على الأمة وحياضها.

«المقاومة عملية حضارية وإستراتيجية ممتدة» وخيار لابد أن يتحول إلى إصرار، وإصرار يجب أن يتحول إلى قرار واختيار، بل هو ضرورة تتعلق بالكيان والوجود.

مقاومة الأمة فعلها الحامي لكيانها، الضامن لفعاليتها، القادر على حفظ بقائها واستمرارها. المقاومة حالة شاملة متكاملة يتكافل فيها عناصر مقاومة الاستبداد في الداخل ومقاومة العدوان من الخارج، هي حال خمائر عزتها وقدرات ممانعتها الحضارية.

ليس هذا فائض كلام وإنما هي بلاغة المقاومة حينما تبلغ بيانها، وتفعل فعلها على الأرض فتقدم انتصارات مهمة، التي تعنى ضمن ما تعنى أن هذه الأمة تستعصي على الموت كما

تستعصي على الاحتواء. وأن عناصر ممانعتها هي حقيقة مناعتها وحصانتها، والصمود هو عين الانتصار.

المقاومة عملية معرفية وثقافية وفكرية واجتماعية وسياسية واقتصادية شاملة، حضارية في محتواها، وحضارية في مقاصدها. تملك عناصر تمكينها من المفاهيم الحرة التي تشكل أساس خطابها للأمة «مفاهيم الحرية والتحرر» في مواجهة مفاهيم «العدو والعدوان والعبودية والاستسلام».

هذه أولى معاركنا: المفاهيم والكلمات كالحياض وكالجيوش، وجب الدفاع عنها كالأرض والعِرض، لأنها تُنتهك في حرماتها، وتدنس معانيها.

وانتهاك حرمة معاني الكلمات لا يأتي فقط من معتدٍ من خارج يحاول أن ينحرف بالمعاني ويدلس الدلالات، فتصير الكلمات لا تدل أو ترشد، بل قد تأتي كذلك من داخل حيث تهون فيه الكلمات وتهان، أين نحن من كلمات الكرامة وعقلية العزة ونفسية الأحرار؟ أين مقامنا من كلماتنا، ومقام كلماتنا فينا؟

وأين نحن كذلك من أيامنا (أيام العرب والمسلمين)، أيام المقاومة؟ المقاومة في هذا الاعتبار «قيام» و«قوام» و«مقام» و«قيمومية» و«قيمة». إنه جذر «قوم» الذي يحرك كل قيمة وكل عمل قيم وقائم، المقاومة فعل الأمة وفاعليتها، وعز الأمة وقدرات تمكينها. هل تعلمنا درس المقاومة من خبراتها المتعددة على مر التاريخ والتي استطاعت أن ترد العدوان وان تحمى شرف الأمة وكرامتها، أم أن البعض لم يعد يعرف لمعاني الشرف والكرامة والعزة معنى؟! إنها المقاومة لا مساومة من أرباب السياسة القذرة وواقعيتها الواهنة التي في حقيقتها ليست إلا سقوطًا واهنًا ووقوعًا لا واقعية، ولا مقاولة للمنتفعين من هذه السياسات في الحفاظ على كراسيهم، شاهت وجوههم وساء ما يفعلون.

في هذا السياق يجب أن نرى حرب إسرائيل القذرة على غزة العزة.

غزة العزة.. عصر الرويبضة وحال الغثائية وعقلية الوهن

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**سيأتي على الناس سنوات خداعات يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين وينطق فيها الرويبضة. قيل:** وما الرويبضة؟ قال: **الرجل التافه يتكلم في أمر العامة**»، أما الحديث فقد أخرجه ابن ماجة في سننه في كتاب الفتن، وأخرجه أيضًا الإمام أحمد في مسنده، واستقصى طرقه الشيخ ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وترجم له بعنوان: أليس هذا زمانه؟. بلى: إن هذا لزمانه، وإنها السنين الخداعة التي ينطق فيها الرويبضة. ويتكلم في أمر العامة، فيفوَّض في الأمر الجلل ويوكَّل إليه الأمور العظام التي تتعلق بمصير أمة ومكانة شعوب، وما هو بمستحقه، وهذا من جملة أن يوسد الأمر إلى غير أهله.

المقاومة عملية حضارية واستراتيجية ممتدة.. وخيار لابد أن يتحول إلى إصرار، وإصرار يجب أن يتحول إلى قرار واختيار

إذا تكلم الرويبضة في أمر العامة، وإذا صار الأمين خائنًا، والخائن أمينًا، فلا شك أن موازين القيم قد تغيرت بل انقلبت، وموازين الحياة كلها تخلخلت. نعم، الرويبضة هو الرجل التافه الذي رغم تفاهته يتكلم في أمر جليل جدًا يمس الناس كلهم!!، ها هي هذه الأمور تقع في زمننا، فنحن نرى الرويبضة قد فضح نفسه لأن الناس قد رأوه أمام هذه الهامات الشامخة على حقيقته قزمًا، والأمور العظام لا تطلب إلا عظيمًا، فشأن الرويبضة أن يتحرك الحركة التافهة في الأمر الجلل العظيم. انقلاب الموازين يتحرك صوب انقلاب في عالم الكلمات والمفاهيم وتحريف الكلم عن مواضعه.

والرويبضة -كما قال الرسول ﷺ رجل تافه يتكلم في أمور العامة. وفي اللغة: كلمة رويبضة من ربض يربض فهو رابض... ويصغَّر تحقيرًا، رويبضة، قال اللغوي ابن منظور: «الرويبضة: هو العاجز الذي ربض عن معالي الأمور وقعد عن طلبها، والغالب أنه قيل للتافه من الناس لرُبُوضِهِ في بيته، وقلة انبعاثه في الأمور الجسيمة».

يبيّن الرسول ﷺ أمورًا ستصير في مستقبل الأيام وهي حاصلة في واقعنا المعاصر، منها: أن يتمكن التافه من الكلام، وكأن الأصل ألا يتكلم إلا العاقل الحكيم، ومما يزيد المشكلة عمقًا ومساحة أن يكون هذا وأمثاله ممن يتناول أمور الجماهير فيسهم في تضليل الرأي العام، وتوجيه العامة إلى مستوى طرحه كتافهٍ قاعد متقاعس، أو على ضعفهم فوُسِّد أمرهم لرويبضة. يصف الرسول صلى الله عليه وسلم الزمن الذي يصول فيه الرويبضة بالسنوات الخدّاعات، ذلك لأن الأمور تسير خلاف القاعدة، فالصادق يُكذَب والكاذب يُصدَّق، والأمين يُخَوّن والخائن يُؤتَّمن، والصالح يُكمَّم والتافِهُ الرويبضة يُمكن. هل نحن الآن في زمن الرويبضة.. وقاموس الرويبضة؟

خطاب الرويبضة والسنوات الخدّاعات: غزة الفاضحة معركة المعاني

أي عقلانية هذه التي تريد أن تقنعنا بأن الصراع في فلسطين لم يعد صراعًا بين دولة الاغتصاب والاحتلال والشعب المنكوب بالاحتلال والحصار والتجويع والتركيع والذبح والقتل

الجماعي، وإنما هو صراع بين محور التشدد وعلى رأسه إيران، ومحور «الاعتدال»؟!

وعليه، فإن صواريخ حماس هي الفعل المحرّض الذي أوجب ردة الفعل الإسرائيلية، وإن هذه الصواريخ لم تنطلق ردًا على الخروقات الإسرائيلية المتكررة لاتفاق الهدنة والتي شملت أكثر من مائة وخمسة وعشرين خرقًا عسكريًا، فضلا عن الحصار القاتل الذي امتد سنة ونصف السنة، وإنما انطلقت بأوامر إيرانية لتحقيق أجندة إيرانية ضد دول «الاعتدال» العربي؟!

إذن، فحرب غزة هي حرب بالوكالة لا شأن لها بالمقاومة والاحتلال! لا بأس إذن، ولكن أفيدوني: إذا كانت المقاومة الفلسطينية في غزة هي الوكيل الإيراني في هذه الحرب، فمن وكيل دول الاعتدال المستهدفة فيها؟ إذ لا نعلم أن صواريخ حماس قد سقطت في أرض عربية.

هل نفهم إذن من هذا المنطلق العقلاني أن «إسرائيل» هي وكيل أطراف «الاعتدال»، وأن استهدافها بصواريخ حماس كان في باطن الأمر استهدافًا لتلك الأطراف؟! هل بلغ الأمر بهذا المنطق «العقلاني» أن يماهي بين إسرائيل ودول الاعتدال؟ فأي دعاية أفضل من هذه لإيران ولأطراف الممانعة؟ وأي دعاية أقبح من هذه لدول «الاعتدال»؟! ما لكم كيف تحكمون؟

وفى إجمال بارع يستحق أن يدرس في عالم المفاهيم وتُربَّى عليه الأجيال تنشئة وتذكرة يعطى وليد سيف فى مقالة مهمة الإشارات والتنبيهات حول معركة المعاني في المعجم السياسي للعالم العربي أو الصراع على استملاك أنظمة المعاني التي تشكل الوعي العام في ظل العقلانية والواقعية السياسية، تتغير المعاني إلى:

- لا تقل «العدوان الإسرائيلي» و«المشروع الصهيوني» الإحلالي الاستيطاني الاستعماري التوسعي، ولا تتحدث في المقابل عن اغتصاب الوطن الفلسطيني عام ١٩٤٨، وعن حق الشعب الفلسطيني في كامل وطنه، ولو من الناحية المبدئية؛ لأن هذا كله يحيل إلى الخطاب العاطفي الانفعالي «القومجيّ» البائد الذي عفى عليه الزمن وتجاوزته الظروف، ولكن قل «إسرائيل» وحسب، ودون مزدوجتين.
- لا تقل «عرب» و«عروبة» و«وطن عربي»، وأقبح من ذلك أن تقول: قوميّة؛ فإن هذا كله يحيل إلى التجارب «القومجيّة» (لاحظوا الجيم المقحمة هنا للتبخيس والتدنيس)، الفاشلة، وخطابها العاطفي الغرائزي الفجّ، ونظمها البوليسية القمعية التي انتهت بنا إلى الهزائم والكوارث. ولكن قل منطقة الشرق الأوسط وحسب، التي تشمل أقطارًا ناطقة بالعربية (ولكنها لا تشكل أمة) وأقطارًا أخرى غير عربية، وفي مركزها إسرائيل.
- لا تقل «إسلاميّ»، إلا لتحيل إلى التطرف والإرهاب والتخلف، وتوظيف الدين لأغراض سياسية. والمفردة الأصوب: «إسلامويّ»، تبخيسًا وازدراء. ولن يمنع هذا إعلاميي العار من أن يتناسوا هذا التوجيه الذي يدين توظيف الدين لأغراض سياسية، ليستدعوا بأنفسهم فتاوى تحرم الجهاد ضد الاحتلال بغير إذن ولي الأمر (!!)، وتحرم استعمال صفة الشهيد لضحايا الاحتلال، وتحرم صور الاحتجاج الشعبي بدعوى أنها تصرف عن ذكر الله وتفضي إلى الفتنة، وتحرم العمليات الاستشهادية بدعوى أنها عين الانتحار المحرّم. لا بأس في صحوة تقوى مفاجئة مؤقتة يوظف بها إعلاميو العار الدين لخدمة سياسات الاعتدال (الخنوع والتواطؤ). إنما المنهيّ عنه توظيف الدين لإذكاء روح المقاومة والجهاد ضد المحتل.
- لا تقل: مقاومة وجهاد وعمليات استشهادية؛ فهذه مفاهيم ملوثة بالإرهاب والتطرف ومجافاة الواقعيّة السياسية التي يفرضها الظرف. وهي ضد «الاعتدال».
- لا تقل «إمبرياليّة» في وصف الولايات المتحدة؛ فإن هذا يحيل إلى الخطاب اليساريّ الذي يُفترض أنه انقضى مع انقضاء الاتحاد السوفيتي والثورة العالمية (وكأنّ إمبريالية الولايات المتحدة مجرّد أسطورة متخيّلة صنعها الاتحاد السوفيتي في سياق الحرب الباردة. أما هذه الهيمنة الأميركية الدولية التي بدأت قبل نشوء الاتحاد السوفيتي، وأثناء وجوده وازدادت توحشًا بعد انهياره، فلا تكفي لاستعمال صفة الإمبريالية).
- لا تقل عدالة اجتماعيّة ولا دولة رعاية اجتماعية؛ فإن هذا يحيل من جديد إلى «الاشتراكية» المدنّسة، في مقابل الاقتصاد الحرّ المقدّس (الذي يوشك الآن أن يودي بالاقتصاد العالمي إلى الهاوية).
- لا تفسّر ظاهرة الإرهاب والتطرّف تفسيرًا يحيلها إلى المظالم الفاحشة التي اقترفتها وتقترفها الولايات المتحدة وإسرائيل والدول الكبرى؛ فإن هذا التفسير يعني التبرير. ولكن اكتفِ بالتفسير الذي يردّ هذه الظاهرة إلى عوامل ذاتية ثقافية تتعلق بالنظم التربوية الدينيّة والخطاب الإسلاميّ بعامة، وإلى غياب مفاهيم التعدديّة وقبول الآخر. ولذا فإن معالجة ظاهرة التطرف والإرهاب تتمثل فقط في إشاعة ثقافة التعددية. فالصراع ليس أكثر من صراع ثقافي حضاريّ خالص. وإذ هو كذلك، فإن الذي يتحمل مسؤوليته الكاملة، ليس الغرب الليبرالي الديمقراطي التعدّدي، وإنما هو الثقافة العربية الإسلامية السائدة التي تحتكر «صناعة الموت».
- لا تُكثر الحديث عن الاحتلال بوصفه أصل الداء وأسّ البلاء (فهذا يستدعي في المقابل تسويغ المقاومة، ويصرف التهمة عن حماس ودورها في تنفيذ أجندة إيرانية سورية ضد محور الاعتدال العربي، لا ضد الاحتلال!). وفي المحصّلة يجب أن

يصور الصراع، لا بكونه صراعًا بين قوة الاحتلال والاغتصاب، والشعب المنكوب المقاوم، وإنما هو أقرب إلى أن يكون نزاعًا سياسيًا على حقوق مختلف عليها، بين شعبين اتفقا على أنهما يعيشان على الارض نفسها!

ها هو الرافعي يشد من أزر رحمه الحضاري في معركة المفاهيم والمعاني يقول لهم: سلمتم «إن الأمة لن تكون في موضعها إلا إذا وضعت الكلمة في موضعها، وإن أول ما يدل على صحة الأخلاق في أمةٍ كلمة الصدق فيها، والأمة التي لا يحكمها الصدق لا تكون معها كل مظاهر الحكم إلا كذبًا وهزلا ومبالغة». سلمتم «إن كلمة (حقي) لا تحيا في السياسة إلا إذا وضع قائلها حياته فيها». بوركتم فما دام هذا الشعب لين المأخذ، فإن هذا يوجد له من يأخذه، وما دامت الكلمة الأولى في معجم لغته السياسية هي مادة (خضع يخضع)، فهذه الكلمة تحمل في معناها الواحد ألف معنى، منها: ظلم يظلم، وركب يركب، وملك يملك، واستبد يستبد، ودجل يدجل، وخدع يخدع، فهل يكثر أن يكون منها للأجانب امتاز يمتاز؟ «وأكمل وكان للمغتصب أن ينهب ما أراد ومؤبدًا له نمكن له منا.

رابطوا على هذا الثغر لا تغادروه «أثر الجيش معروف في دفاع الأمم العدوة عن البلاد، فأين أثر جيش العلماء في دفع المعاني العدوة عن أهل البلاد، وقد احتلت هذه المعاني وضربت وتملكت..؟».

معركتنا الأساس في النهضة والمقاومة مع هؤلاء «وأقول ولا أبالي: إننا ابتُلينا في نهضتنا هذه بقوم من المترجمين والنقلة قد احترفوا النقل من لغات أوروبا ولا عقل إلا عقل ما ينقلونه: فصنعتهم الترجمة من حيث يدرون أو لا يدرون صنعة تقليد محض ومتابعة مستعبدة، وأصبح عقلهم -بحكم العادة والطبيعة- إذا فكر انجذب إلى ذلك الأصل لا يخرج عليه ولا يتحول عنه، وإذا صح أن أعمالنا هي التي تعلمنا -كما يقول بعض الحكماء - فهم بذلك أخطر على الشعب وقوميته وذاتيته وخصائصه ويوشك إذا هو أطاعهم إلى كل ما يدعون إليه أن.... أن يترجموه إلى شعب آخر..». ولهم عقول عجيبة في اختراع الألفاظ، حتى لتكون شدة الوضوح في عبارة هي بعينها الطريقة لإخفاء الغموض في عبارة أخرى، وكثيرًا ما يأتون بألفاظ منتفخة تُحسب جزلة بادنة قد ملأها معناها، وهي في السياسة ألفاظ حبالى، تستكمل حملها مدة ثم تلد..

إذا كانت المقاومة الفلسطينية في غزة هى الوكيل الإيرانى فى هذه الحرب، فمن وكيل دول الاعتدال المستهدفة فيها؟

ولهم من بعض الكلمات، كما لهم من بعض الرجال السياسيين، فيكون الرجل من دهاتهم رجلا كالناس، وهو عندهم مسمار دقوه في أرض كذا أو مملكة كذا، ويكون اللفظ لفظًا كاللغة، وهو مسمار دقوه في وثيقة أو معاهدة..

وما ذلت لغة شعب إلا ذل، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار. ومن هذا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضًا على الأمة المستعمرة ويركبهم بها ويُشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم من ناحيتها، فيحكم عليهم أحكامًا ثلاثة في عمل واحد: أما الأول فحبس لغتهم في لغته سجنًا مؤبدًا، وأما الثاني فالحكم على ماضيهم بالقتل محوًا ونسيانًا، وأما الثالث فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرهم من بعدها لأمره تبعٌ. إنه السند الحضاري الموصول: الذاكرة واللغة والمعاني.

●●●